هم العدو فاخشوهم

كتب أحدهم قبل فترة مقالة فحواها الانضباع بأخلاق الغرب وصدقه والتزامه وحضارته وتقدمه، والتبكيت على تخلفنا وجفائنا وغلظة تصرفاتنا، وقد سبقه إلى ذلك الشيخ محمد عبده، وغيره كثير ممن انبهروا من القانون وأثره على أخلاق وسلوك الناس حين يتم تطبيقه دون تمييز ودون تهاون، ومن الابتكارات والاختراعات حين يفتح للعقل المجال ليتقدم، لكن الكاتب نسي في مقالته أن يتطرق إلى نفسه وحزبه ومشائخه وتياره الذين حرموا وجرموا القوانين (الوضعية) - حسب تعبيرهم - واعتبروا أن القرآن الكريم كاف لأن يكون قانوناً ينظم أدق تفاصيل حياة الناس ويراقبها، واعتبروه كتاباً علمياً يطوف بين كافة التخصصات، وروجوا للمقولة المشهورة: « العلم ما قال الله وقال رسوله » في إيحاء واضح بأن ما عدا ذلك لا قيمة له، ومنهم من صرح، ومنهم من لمح بحرمة أو كراهة بعض العلوم البحتة، وبعض العلوم الاجتماعية كالفلسفة وعلم النفس وخلافهما، فزهد الناس في تلك العلوم وتجنبوها، والبعض اكتفى منها باللمم بعد أن فرضت عليه فرضاً في مناهج الدولة الطامحة إلى نفض غبار الجهل من رؤوس المهطعين الراكنين إلى الجهل والكسل والتخلف، واعتبروه كذلك دستوراً ينظم شؤون الدول السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ونحن نعلم وهم يعلمون، أن القرآن الكريم كتاب قيم وعقيدة وعبادات ومبادئ ومثل عليا تحتاج إلى تفصيل وتمثل وتطبيق ورقابة ومحاسبة، وكتاب دعوة إلى الإيمان والتوحيد وإعمال العقل والتفكر والتدبر في الكون والحياة والإنسان، وليس كتاب سياسة ولا اقتصاد ولا حساب ولا جغرافيا ولا كيمياء أو فيزياء أو أحياء.

ونسي الكاتب أيضاً أنه وحزبه ومشائخه هم المسؤولون الأوائل عن تجافي الناس وتنافرهم بعد أن تفننوا في بعث العنصرية وبث الكراهية بينهم، فأبدعوا في تشتيت المجتمع وتقسيمه وتفسيقه وزرع الشك بين أفراده، بل وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة، بل وصلوا إلى حد التفريق بين الزوجين لأسباب عنصرية بحته، وكم من فرد في هذا المجتمع اضطر إلى النفاق لإرضاء التيار الذين أوهموه بامتلاك مفاتيح العلم والحقيقة والجنة والنار، ولإرضاء الأقارب الذين انضموا للتيار وأصبحوا من الأتباع المخلصين، فأصبح النفاق ثقافة مجتمع، وأصبح لكل واحد منا مائة وجه، للمسجد وجه، وللأصحاب وجه، وللأسرة وجه، ولما بين الجدران وجوه، فطمست الهوية وطمس اليقين، وطمست الثقة في النفوس.

ونسي الكاتب أنه وحزبه ومشائخه هم من زرع الغل والحقد والكراهية في نفوس هذا المجتمع ضد بقية الأمم التي تشاركنا هذا الكوكب، وتزرع لنا ما نأكل، وتنقّي لنا ما نشرب، وتحيك لنا ما نلبس، وتصنع لنا ما نركب، الأمم التي يسرت لنا الحياة بفضل الله، من علاج ووسائل إعلام واتصال وبناء ورفاهية، لقد روجوا بيننا أننا مكروهون من العالم قاطبة وأننا يجب أن نكره كل الشعوب وأن نكون على أهبة الاستعداد لمحاربة حتى طواحين الهواء، بل وحتى الشعوب القريبة المسلمة لم تسلم من أذاهم، ولم يبق لهم على النهج الصحيح سوى مدنهم وجامعاتهم ومذهبهم وكل من عدا ذلك فهم في ضلال وخسران مبين، فذاك مميع للدين، وذلك شيخ سلاطين، وهذا خارجي، وذاك صوفي، قبوري، جامي، سلفي، مدخلي، زيدي، أباضي، جهمي، معتزلي، إسماعيلي، حداثي، ملحد، علماني، ليبرالي، وعندهم الشرق شيعي، والجنوب زيدي، والحجاز باريس، والشمال متتبع للرخص، بل حتى المذاهب السنية لا تعجبهم، فالمالكي والشافعي والحنفي تحوم حولهم الريبة وأسوأ الظنون، وتُصعَّرُ عن علمائهم الخدود وتتمعرُ من آرائهم الوجوه، بل ويُحاربون جهاراً نهاراً عبر المنابر ووسائل الإعلام والمؤلفات المسلوقة من (أبو ريالين)، فمصر فاجرة، والشام داعر، والعراق فتنة، واليمن متخلف،

والمغرب العربي رجس من عمل الشيطان، وبقية الأمم والشعوب أعداء صرحاء.

لقد نسي الكاتب أنه وحزبه ومشائخه هم المسؤولون عن ضياع العدل على يديهم، فالرأس ليس بمقتل عندما يكون القاتل من تيارهم، والمطاردة التي أدت إلى القتل ليست جناية وإنما مخالفة إدارية حين يكون المطارد من حزبهم، والمختلس والمرتشي مسحور حين يكون أحد قضاتهم، بل إن السكوت عن الجرائم واجب حتى لا تكون فتنة حين يكون المجرم منهم، والجني هو المسؤول الأول والأخير عن جميع كوارثهم، بل وحتى عن صكوكهم المليارية المزورة، فظهرت أحكام عجيبة غريبة تخالف العقل والمنطق والشريعة التي بها يدينون، فيحكم بالسجن خمس سنوات على من سرق خروفاً، وبالتفريق بين الزوجين لعدم مكافأة النسب أو اختلاف المذهب، وبالقتل لمن دافع عن شرفه في عقر داره، وإطلاق سراح من قتل طفلته ذات الخمس سنوات لأنه يشك في سلوكها، وإطلاق سراح من طارد عائلة فقضى على معيلها بسبب أناشيد طيور الجنة، وتبرئة مطاردي اليوم الوطني، وسجن الضعيف والإعراض حتى عن إثارة قضية على الشريف، وغير ذلك وغيره من آلاف الأحكام الأسطورية التي يجب أن تضم إلى عجائب الدنيا.

لقد نسي الكاتب أنه وحزبه ومشائخه هم المسؤولون عن زرع اليأس والقنوط والإحباط في نفوس الناس حين علا صراخهم من على المنابر بالويل والثبور للجميع باستمرار، حتى أفقدوا الناس الأمل في الجنة والخير والعدل والرحمة والتعايش والتسامح، ونسي أنهم هم من ترهبن وتمظهر بمظاهر الصالحين ورسم (اللوقو) المقدس (مشلح وغترة بدون عقال) وأحاطوا أنفسهم بهالة براقة أسموها (نورانية) وأسموا علماءهم (بالربانيين) وجعلوا لحومهم مسمومة، وروجوا بين البسطاء لهذه المقولة لكي يكفوا عن سؤالهم ونقاشهم فيما يقولون ويفعلون من الأثافي، فتكبروا وتغطرسوا وتعالوا على بقية الخلق، وغدت الغلظة لهم سمة، وتقطيب الجبين لهم ميزة، وسلاطة اللسان لهم عادة، وتجهم الوجوه لهم حلية يلبسونها، فنفر الناس من الدين وتفلتوا منه تفلت الإبل من عقالها حتى

عاد الإلحاد إلى جزيرة العرب من جديد بسبب تلك الأقوال والأفعال والأحوال المتناقضة التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة النفاق والفجور.

لقد نسي الكاتب أنه وحزبه ومشائخه هم المسؤولون عن اكتئاب الناس وغلظتهم وتجهمهم حين سلبوا البسمة من شفاههم واغتالوا الفرح في نفوسهم، فحرموا عليهم كل شيء تقريباً، وحذروهم من البهجة والمتعة والضحكات البريئة، وروجوا للزهد والخوف والدروشة والانقطاع عن الدنيا، ووضعوا سكين الموت فوق رقابهم ليبقوا وجلين خائفين خاضعين خانعين منكسرين، ينتظرون الموت ويكرهون الحياة، بينما الكاتب وحزبه ومشائخه يعيشون في القصور، ويتمتعون بالألقاب والمناصب والهبات والمنح والشرهات والوظائف والعضويات المتعددة في مظانّ المال وأماكن انهماره، من جمعيات خيرية وبعثات دعوية وإمامة وخلافها الكثير، فكانوا من العاملين لها وليس عليها، وتوسدوا ريش النعام حين توسد مريدوهم الشوك، وأكلو المنّ والسلوى وطلابهم وأتباعهم يتجرعون الحنظل بالعلقم.

لقد نسي الكاتب أنه وحزبه ومشائخه هم من غالوا وتشددوا وتنطعوا وشادّوا الدين قولاً وخانوه عملاً، مثلما خانوا مريديهم ومؤيديهم، وتبرأوا منهم مثلما يتبرأ الشيطان من أتباعه يوم القيامة، بعد أن ارتد رصاص طلابهم إلى نحر المجتمع الذي جرّموه وأثاروا الشبهات حول أفراده وحكامه، وبعد أن أصبح أتباعهم مشردين شذر مذر من أفغانستان إلى العراق إلى سوريا إلى كل مكان، يوزعون الموت وكراهية الإسلام على شعوب العالم بالمجّان، وينضمّون إلى القاعدة والنصرة وبني (فغرة) وداعش وفاحش وخابش (من خَبَشة) ودابش (من دَبَشة) بينما ينضمُّ أبناء شيوخ الحزب إلى إكسفورد والسيربون وإنديانا ولويزيانا، إن مجتمعاً يعاني كل تلك العيوب والأسقام لن يصل إلى ما وصل إليه الغرب ولو بعد ألف عام، إلّا أن يعالج نفسه بمعالجة أسباب تيهه وانفلاته ونفاقه وضياعه وتخلفه.

وإني لأربأ بدين الله وقرآنه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون لها يد في

تخلفنا واختلال أخلاقنا وسلوكنا، فقد خبرناها وعرفناها حين ساد المسلمون الشعوب وقادوا الحضارة بكل معانيها المادية والمعنوية في يوم من الأيام، وإني لأبرئ الغالبية من المؤمنين الصادقين المخلصين العابدين الزاهدين المسلمين حقاً.

ولكني ألقي بالمسؤولية - كامل المسؤولية - على تلك الأقلية ذات الصوت والضجيج، ممن اعتبروا أنفسهم هم الدين، فشرَّقوا وغرّبوا تبعاً لأهوائهم ومصالحهم حتى غدا الدين لعبة بأيديهم، ومصدر دخل إضافي لأرصدتهم، وسلماً للترقي نحو المنصب والجاه، غير عابئين بما تخلفه أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم من دمار للدين والأخلاق والمجتمع.

وهؤلاء هم الداء العضال الذي يجب اجتثاثه، وقلب المجنّ عليه، وسحب البساط من تحت قدميه، لكي يعود الناس إلى طبيعتهم ومكارم أخلاقهم ودينهم القويم، ألا وإن آخر الدواء الكي، ألا وإن آخر الدواء الكي.

obeikandl.com